الإمـــام أبـــو حنيفـــة

(٨٠-١٥٠هـ=٦٩٩-٧٦٧م)

دفاع عن الحرية حتى الموت

obeikan.com

الدين قوة وشجاعة،غلبة وانتصار،إذا ما ملأ الإيمان قلبا ما عرف صاحبه الخوف يوما،لأنه يوقن أن الله هو الذي يخشاه ولا يخشى أحدا سواه،وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه ما ضروه إلا بشيء قد كتبه الله له. الإيمان القوي يجعل صاحبه لا يسير إلا في اتجاه الحق،يكسبه حجه ناصعة،ورأيا سديدا. تهون عليه الحياة ولا يهون الدين.

المؤمن الحق هو من أطاع الله والرسول. وأولي الأمر إلا في معصية،نصرة الدين شاغله الأول. وقول الحق لدى السلطان ديدنه. وهكذا كان «أبو حنيفة النعمان». صاحب الاقتحامات الفكرية الجسور،الذي كان عارفا بأحوال الحياة،مستوعبا كل ثقافة من سبقوه ومن عاصروه،خبيرا بالرجال،شديدا على الباطل مرير السخرية بالمزيفين،لاذعا مع المنافقين من متعاطي الفقه والعلم والثقافة في عصره.

ولد «أبو حنيفة النعمان» بالكوفة سنة ٨٠ هـ. من أسرة فارسية،وقد شهد في طفولته فظائع الحجاج والي العراق وبطشه بكل من يعارض الأمويين حتى العلماء الأجلاء،فدخل في نفسه منذ صباه عزوف عن الأمويين واستنكار لاستبدادهم،ورفض عام للطغيان. وورث عن أبيه وأمه حبا لآل البيت.

وكان أبوه تاجرا فعمل معه وهو صبي،وأخذ يختلف إلى السوق ويحاور الكبار ليتعلم منهم أصول التجارة وأسرارها،ولاحظ أحد الفقهاء اهتمامه بالعلم،فقال له: عليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء. فإني أرى فيك يقظة وفطنة.

طلب العلم:

منذ ذلك اليوم وهب الفتى نفسه للعلم،واتصل بالعلماء،ولم تنقطع تلك الصلة حتى آخر يوم في حياته،حيث انطلق يرتاد حلقات العلماء في مسجد الكوفة،يدرس علوم الكلام والأحاديث النبوية والفقه والقرآن الكريم. ثم مضى ينشد العلم في حلقات البصرة. وانتهت به رحلاته بين البصرة والكوفة إلى العودة إلى موطنه بالكوفة،وإلى الاستقرار في حلقات الفقه،لمواجهة الأقضية الحديثة التي استحدثت

في عصره،ولدراسة طرائق استنباط الأحكام.

وكان أبوه قد مات،وترك له بالكوفة متجرا كبيرا للحرير يدر عليه ربحا ضخما،فرأى أبو حنيفة أن يشرك معه تاجرا آخر،ليكون لديه من الوقت ما يكفي لطلب العلم وللتفقه في الدين ولإعمال الفكر في استنباط الأحكام.

ودرس على عدة شيوخ في مسجد الكوفة،ثم استقر عند شيخ واحد فلزمه،حتى إذا ما ألم بالشيخ ما جعله يغيب عن الكوفة،نُصب أبا حنيفة شيخا على الحلقة حتى يعود. وعندما جلس مكان شيخه سُئل في مسائل لم تعرض له من قبل،فأجاب عليها وكانت ستين مسألة.

وعندما عاد أستاذه عرض عليه الإجابات فوافقه على أربعين،وخالفه في عشرين،ومات الشيخ وأبو حنيفة في الأربعين،فأصبح شيخا للحلقة،وكان قد دارس علماء آخرين في رحلات إلى البصرة وإلى مكة والمدينة خلال الحج والزيارة،وأفاد من علمهم وبادلهم الرأي،ونشأت بينه وبين بعضهم حوادث،كما انفجرت خصومات.

ووزع وقته بين التجارة والعلم،وأفادته التجارة في الفقه،ووضع أصول التعامل التجاري على أساس وطيد من الدين،وكان «أبوبكر الصديق» رضي الله عنه هو مثله الأعلى في التجارة من حيث حُسن التعامل والتقوى والربح المعقول الذي يدفع شبهة الربا.

التاجر الحق:

في تجارته يعطي «أبو حنيفة النعمان» المثل والنموذج لكل تاجر في الصدق والأمانة،جاءته امرأة تبيع له ثوبا من الحرير وطلبت ثمنا له مائة درهم،وعندما فحص الثوب قال لها: هو خير من ذلك،فزادت مائة،ثم زادت حتى طلبت أربعمائة فقال لها نفس القول،فقالت أتهزأ بي؟ قال لها: هاتي رجلا يقومه،فجاءت برجل فقومه بخمسمائة. فهل يوجد مثل أبي حنيفة بين بعض تجار اليوم الذين لا يهمهم إلا

الربح وبأي وسيلة حتى ولو كانت غير مشروعة.

وأرادت امرأة أخرى أن تشتري منه ثوبا فقال: خذيه بأربعة دراهم،فقالت له: لا تسخر مني وأنا عجوز،فقال لها: إني اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم،فبقى هذا الثوب على أربعة دراهم.

وذهب إلى حلقة العلم يوما،وترك شريكه في المتجر،وأعلمه أن ثوبا معينا من الحرير به عيب خفي،وأن عليه أن يوضح العيب لمن يشتريه،وباع الشريك الثوب دون أن يوضح العيب.

وظل «أبو حنيفة» يبحث عن المشتري ليدنه على العيب،ويرد إليه بعض الثمن،ولكنه لم يجده،فتصدق بثمن الثوب كله،وانفصل عن شريكه.

وعلى الرغم من أنه كان يكسب أموالا طائلة،فقد كان لا يكنز المال،يحتفظ بما يكفيه لنفقة عام ويوزع الباقي علي الفقراء والمعسرين،فإذا عرف أن أحدا في ضيق، أسرع إليه، وألقى بصرة على بابه،ونبهه إلى أنه وضع علي بابه شيئا،ويُسرع قبل أن يفتح صاحب الحاجة الصرة.

وكان «أبو حنيفة» يدعو أصحابه إلى الاهتمام بمظهرهم،وكان إذا قام للصلاة لبس أفخر ثيابه وتعطر،لأنه سيقف بين يدي الله،فقد كان يعمل بالحديث النبوي القائل: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

تواضع وحياء:

وكان شديد التواضع،كثير الصمت،يقتصد في الكلام،ولا يقول إلا إذا سُئل،وإذا أغلظ إليه أحد أثناء الجدال صبر عليه،وإذا دخلت إليه امرأة تستفتيه قام من الحلقة وأسدل دونها ستارا ليحفظها من عيون الرجال،وأجابها عما تسأل،وقد نبع هذا التقدير الكبير للمرأة من حبه العميق لأمه،ثم من فهمه الواعي للإسلام واتباعه اليقظ للسنة واجتهاداته الذكية،وقد قاده اجتهاده إلى الإفتاء بأن الإسلام يبيح للمرأة حق تولي كل الوظائف العامة بلا استثناء حتى القضاء.

قال أبو حنيفة بذلك حوالي سنة ١٢٠ هـ ومازال علماء الدين في عصرنا يختلفون حول هذا الأمر ويرفض بعضهم في شدة تولي المرأة القضاء!!

كان مخالفوه في الرأي يغرون به السفهاء والمتعصبين والمتهوسين،ويدفعونهم إلى اتهامه بالكفر،وإلى التهجم عليه،فيقابلهم بالابتسام، ولكنه على الرغم من سماحته لم يكن يسكت عن خطأ الفقهاء من الذين جعلوا كل همهم نفاق الحكام وإرضاءهم،كان بعضهم يفتي في المسجد إلى جوار حلقة أبي حنيفة،فإذا أخطأ انبرى له أبو حنيفة يكشف ذلك الخطأ،ويعلن الصواب على الناس.

هذه الصراحة في النقد ألبت عليه الخصوم،الذين كانوا صنفين: بعض الفقهاء ممن وجدوا انصراف الناس عن حلقاتهم إلى حلقة أبي حنيفة، وحكام ذلك الزمان.

كان أعداؤه وفي مقدمتهم «ابن أبي ليلى» وتابعه «شبرمة» - فقهاء للدولة في العصر الأموي،حتى إذا جاء العصر العباسي تحولوا إلى الحكام الجدد واحتالوا عليهم بالنفاق حتى أصبحوا هم أهل الشورى،يزينون للحكام الجدد كل ما زينوه للحكام السابقين من طغيان وعدوان وبغي واستغلال وبطش بالمعارضين،واصطنعوا من الآراء الفقهية،وقبلوا من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة ما يسند الطبقة الحاكمة والمستغلين،وما يصرف الناس عنهم وعن أمور الدنيا وعن سياسة حياتهم،لينقطع الناس إلى التقشف،ويتركون مستغليهم يستبدون.

استقلال واحترام:

في الوقت الذي كان أبو حنيفة يحتفظ فيه باستقلاله أمام الحكام،كان يكسب احترامهم حتى ولو اختلفوا معه. فعندما وقع خلاف بين الخليفة المنصور وزوجته لأنه أراد أن يتزوج عليها،أراد أن يحتكما إلى فقيه،فرفضت الزوجة الاحتكام إلى قاضي القضاة «ابن أبي ليلى» أو إلى تابعه شبرمة،أو إلى أحد الفقهاء من بطانة المنصور،وطلبت أبا حنيفة.

وعندما حضر «أبو حنيفة» أبدى الخليفة رأيه آن من حقه الزواج،لأن الله أحل للمسلم الزواج بأربع،والتمتع بمن يشاء من الإمء مما ملكت يمينه.

فرد أبو حنيفة: إنما أحل الله هذا لأهل العدل،فمن لم يعدل فواحدة. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء:٣] فينبغي علينا أن نتأدب بأدب الله ونتعظ بمواعظه. وضاق الخليفة بفتواه،ولكنه أخذ بها.

وقد جد في عصر أبي حنيفة كثير من الحوادث والأقضية والأحوال،بعد اتساع الدولة وتشابك الأمور،وظهور ألوان كثيرة من النشاط التجاري والاجتماعي،وواجه الإمام هذا كله بالاجتهاد لاستنباط الأحكام التي تضبط العلاقات.

وما كان يبتدع في قياسه- كما رماه خصومه - وما كان يهدر السنة- كما حاول ابن أبي ليلى وتابعه شبرمة أن يصوراه كيدا له،بل كان منهجه قياس. المسألة على أخرى ليردها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة فيجتهد(*).

المساواة بين الرجل والمرأة:

وقاده هذا الاجتهاد إلى عدد من الآراء الحرة،ومنها الدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة في عصر بدأت المرأة فيه تتحول إلى حريم للمتاع،فأفتى بأن للبالغة أن تزوج نفسها،وهي حرة في اختيار زوجها.كما أفتى بعدم جواز الحجر على أموال المدين،حتى لو استغرقت الديون كل ثروته،لأن في هذا مصادرة لحريته. وأفتى بعدم جواز الحجر على أحد،لأن في الحجر إهدار للآدمية وسحقا للإرادة.

وفي كل أمر من أمور الحياة تتعرض فيه حرية الإنسان لأي قيد،أفتي الإمام أبو حنيفة باحترام الحرية وكفالتها،لأن في ضياع حرية الإنسان آذى لا يعدله أذى، وقد قام فقه الإمام أبى حنيفة على احترام حرية الإرادة،ذلك لأن أفدح ضرر يصيب

(*) صبرى الأشوح، ((التفكير عند أئمة الفكر الإسلامى))، مكتبة وهبه، القاهرة ١٩٩٧م ص١٨٣.

الإنسان هو تقييد حريته أو مصادرتها. وكل أحكامه قائمة على أن هذه الحرية يجب صيانتها شرعا،وأن سوء استخدام الحرية أخف ضررا من تقييدها.

لا لقتال المسلمين:

ومن فتاواه الهامة،أنه أفتى بتحريم الخروج لقتال المسلمين والفتك بهم،مما صرف بعض قواد الجيش في عصره عن حرب العلويين وخصوم الحكام ومعارضة آرائهم. ومن ذلك أن «الحسن بن قحطبة» أحد قواد المنصور دخل على أبي حنيفة يسأله: أيتوب الله عليّ؟.

وكان الحسن هذا قد قاد جيوشا للمنصور فقتل العلويين وخصوم العباسيين،فقال له أبو حنيفة: إذا علم الله تعالى أنك نادم على ما فعلت،فلو خيرت بين قتل مسلم وقتل نفسك لاخترت ذلك على قتله،وتجعل على الله عهدا على ألا تعود لقتل المسلمين،فإن وفيت فهي توبتك. فقال القائد: إني فعلت ذلك وعاهدت الله على ألا أعود إلى قتل مسلم. ثم ثار العلويون فأمر المنصور القائد أن يفتك بهم،فجاء القائد إلى أبي حنيفة يسأله الرأي،فقال له أبو حنيفة: فقد جاء أوان توبتك. إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب،وإلا أخذت بالأول والآخر.

فامتنع القائد عن تنفيذ أمر المنصور،وسلم نفسه إلي العقاب وهو القتل،إذ دخل على المنصور فقال إنه لن يقتل المسلمين بعد! فغضب الخليفة عليه وأمر بقتله،حتى استشفع له أخوه قائلا: إننا ننكر عقله منذ سنة،وأنه قد جن. ولما عرف المنصور أن القائد كان يتردد على أبي حنيفة أسرها في نفسه.

زُهد في المناصب:

رفض أبو حنيفة أن يقبل المناصب،عرض عليه الأمويون منصب القاضي،فرفضه فسجنوه وعذبوه في السجن،وظلوا يضربونه بالسياط حتى ورم رأسه ومع ذلك لم يقبل المنصب،لأنه كان يرى أن تحمل المسؤولية في عهد يعتبر هو حاكميه ظالمين مغتصبين،إنما هو مشاركة في الظلم وإقرار للاغتصاب. وساءت

صحته في السجن،وبدأت الثورة تتجمع ضد الخليفة الأموي احتجاجا على ما يحدث لأبي حنيفة،فأطلقوا سراحه. وبعد خروجه قرر أن يهجر الكوفة وأقام بالحجاز حتي سقطت الدولة الأموية،فعاد إلى موطنه،ظنا أن العباسيين سيكونون خيرا من الأمويين لكن العباسيين لم يتركوه، فمنذ شعر بحيبة الأمل فيهم لاضطهادهم للعلويين من آل البيت واصطناعهم المرتزقة من الفقهاء،بدأ يجهر برأيه في استبدادهم وطغيانهم، ورفض كل هد ياهم كما رفض هدايا الأمويين من قبل، وعرضوا عليه منصب قاضي القضاة فأبى،وتمسك بالتفرغ للعلم.

بدأ خلافه مع الحكام الجدد بإحراج وزير لخليفة الأول،وكشف أكاذيبه أمام الخليفة في محاورة حاول فيها الوزير الأول أن يوقع بالإمام،ففضحه الإمام وأفسد حيلته، وقد أفتى أبو حنيفة بأن الوزير لا تصلح شهادته لأنه يقول للخليفة: أنا عبدك،فإن صدق فهو عبد ولا شهادة له،وإن كذب فلا شهادة لكاذب.

وقد أخذ أحد تلاميذ أبي حنيفة بهذا النظر فيما بعد حين ولي القضاء،فرد شهادة الوزير الأول لخليفة آخر،لأنه قبل الأرض بين يدي الخليفة قائلا له: أنا عبدك.

الكيد لأبى حنيفة:

انضم الوزير الأول إلى خصوم «أبو حنيفة» وفي مقدمتهم «ابن أبي ليلى» أخذ الوزير الأول يكيد عند الخليفة لأبي حنيفة،انتهز فرصة خروج أهل الموصل على الخليفة،وكانوا قد شرطوا على أنفسهم إن هم خرجوا على الخليفة أن تباح دماؤهم وأموالهم،وأرسل الخليفة إلى أبي شبرمة وابن أبي ليلى ليسألهما رأي الدين في أهل الموصل،وكان قد أعد جيشا للفتك بهم،واقترح الوزير الأول على الخليفة أن يدعو أبا حنيفة،وكان يعرف أن تقواه وشجاعته وكل فضائله ستقوده إلى مخالفة رأي الخليفة، وحضر الفقهاء الثلاثة فسألهم عن حكم الشرع فى أهل الموصل، وسكت أبو حنيفة وأفتى الآخران بأن أهل الموصل يستحقون الفتك بهم. وأفتى «أبو حنيفة» بأن الخليفة لا يحق له الفتك بأهل الموصل لأنهم بإباحتهم أرواحهم

وأموالهم إنما أباحوا ما لا يملكون، وسأل لو أن امرأة أباحت نفسها بغير عقد زواج أتحل لمن وهبته نفسها ؟ فقال الخليفة : لا.. فطلب الإمام أبو حنيفة منه أن يكف عن أهل الموصل فدمهم حرام عليه،وأن يوجه الجيش إلى حماية الثغور،أو إلى فتح جديد لنشر الإسلام،بدلا من أن يضرب به المسلمين. ومضى أبو حنيفة إلى داره.

ومرة أخرى حاول ابن أبي ليلى وشبرمة والعصبة المعادية لأبي حنيفة في قصر الخليفة أن يجعلوا الخليفة يقهر أبا حنيفة على قبول ما يعرضه عليه من مناصب،فإذا أبى حنيفة امتنع عن أداء واجب شرعي فحق عليه العقاب،ووجب أن يُشهر به في الأمة،لأنه يتخلى عن خدمتها.

واقترحوا على الخليفة أن يبدأ فيمتحن ولاءه،فيرسل إليه هدية.وكانوا يعرفون سلفا أن الإمام أبا حنيفة لن يقبل الهدية،وأرسل له الخليفة مالا كثيرا وجارية،فرد الهدية شاكرا، ثم أرسل الخليفة إليه يلح عليه فى ولاية القضاء أو فى أن يكون قاضيا للدولة. يرجع إليه القضاة فيما يصعب عليهم القضاء فيه،بما أنه يكثر من لوم القضاة علي أحكامهم ويكشف للعامة جهل شيخهم «ابن أبي ليلى» و«شبرمة».

ورفض أبو حنيفة،فاستدعاه الخليفة يسأله عن سبب رفضه فقال له: «والله ما أنا بمأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟. ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو الحكم عليك لاخترت أن أغرق. ثم أن تلك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك،فلا أصلح لذلك».

وكانت الحاشية كلها تحيط بالخليفة،وعلى رأسها وزيره الأول والفقيهان ابن أبي ليلي وابن شبرمة،فأبدوا التذمر،وبان عليهم استنكار ما يقوله الإمام أبو حنيفة،فقال الخليفة محنقا: كذبت. فقال أبو حنيفة في هدوء حكمت على نفسك. كيف يحل لك أن تولي قاضيا على أمتك وهو كاذب؟!.

حبس وتعذيب:

وسأله الخليفة عن سبب رفض هداياه،فقال له أبو حنيفة أنها من بيت مال

المسلمين ولاحق في بيت المال إلا للمقاتلين أو الفقراء أو العاملين في الدولة بأجر،وهو ليس واحدا من هؤلاء. فأمر الخليفة بحبسه وضربه بالسياط حتى يقبل منصب قاضي قضاة بغداد. ورغم الضرب وكثرة التعذيب ظل الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان يرفض في إباء. وتدهورت صحته وأشرف على الهلاك.

وخشي معذبوه أن يخرج فيروي للناس ما قاسى في السجن فيثور الناس،وقرروا أن يتخلصوا منه فدسوا له السم،وأخرجوه وهو يعاني سكرات الموت. وحين شعر بأنها النهاية أوصى بأن يدفن في أرض طيبة لم يغتصبها الخليفة أو أحد رجاله.

وهكذا مات أبو حنيفة فارس الرأي الذي عُرف في السنوات الأخيرة من حياته باسم الإمام الأعظم. وشيعه خمسون ألفا من أهل العراق في سنة ١٥٠هـ(*).

(*) عبد الرحمن الشرقاوي، «أئمة الفقه التسعة»، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م. ص٧١.